المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: معركة حنين
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
PROPHET'S (PBUH) FIGHTS
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

معركة حنين:

إن انتصار الرسول ρ في مكة، قد أدخل الخوف والرعب في نفوس زعماء هوازن وثقيف، إذ لم تعد قوة في بلاد الحجاز يمكن أن تقف في وجه تقدم الدعوة الإسلامية غيرهم، ومن ثم فقد بادروا إلى إعلان الحرب على الرسول ρ قبل أن يبادرهم بها، في وقت قد لا يكون ملائما لهم، فلما فتح رسول الله ρ مكة مشت أشراف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا: والله ما لاقى محمد قوما يحسنون القتال، فأجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم.

لقد تولى مالك بن عوف قيادة جموع هوازن وثقيف، وكان شابا عمره ثلاثون عاما استطاع أن يحشد للمعركة عشرين ألف مقاتل، كما أخرج معه إلى أرض المعركة أموالهم ونساءهم وأبناءهم، مما أثار بعض الاعتراضات عليه بسبب جسامة العواقب لو خسروا المعركة. غير أن مالكا لم يقتنع بهذه الاعتراضات وبقي مصرا على رأيه، ثم سار بجيشه حتى عسكر به في واد من أودية تهامة يدعى حنينا.

لقد عمل الرسول ρ على مواجهة الموقف بحشد أكبر عدد يستطيع حشده من المقاتلين، فأخذ معه فضلا عن العشرة آلاف الذين جاؤوا معه إلى مكة ألفا مقاتل من أهل مكة، وبذلك تألف جيشه من اثني عشر ألف مقاتل، كما استعار دروعا وسلاحا من عند صفوان بن أمية أحد زعماء مكة، وكان لا يزال مشركا، لاستخدامه في القتال، ثم غادر مكة متوجها إلى أرض المعركة في حنين في ٦ شوال سنة ٨هـ، ووصلها في ١٠ شوال من السنة نفسها.

ويظهر من دراسة معركة حنين أن قائد المشركين من هوازن وثقيف قد استفاد من سبقه في الوصول إلى أرض المعركة، فوزع قواته بطريقة تساعدها على الاستفادة من مضايق وشعاب وادي حنين، ولما كان من الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين– وهو واد أجوف، ذو شعاب ومضايق– وفرق الناس فيه، وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة واحدة.

وعند السحر، عبأ الرسول ρ قواته للقتال، وكانوا شديدي الثقة بأنفسهم لكثرتهم وللانتصارات التي حققوها في المعارك السابقة، غير أنهم فوجئوا عند الهجوم بكثرة قوات العدو والكمائن التي كانوا قد نصبوها لهم في الوديان، فاختلت صفوفهم، وبدأت قواتهم وبخاصة البدوية منها بالهرب.

لقد كاد هذا الموقف أن يتطور إلى هزيمة ساحقة للمسلمين، لولا أن الرسول ρ ثبت بقوة في أرض المعركة، وأخذ ينادي على أصحابه المهاجرين والأنصار بالثبات، فأخذ الناس يتجمعون حول

قيادته، وبدأت كفة القتال تميل لصالح المسلمين بعد أن استوعبوا الموقف وتغلبوا على هول الصدمة الأولى، وأخيرا بدأت صفوف الأعداء بالتفكك والاضطراب، ثم ولوا هاربين تاركين أموالهم ونساءهم وذراريهم بأيدي المسلمين.

وكانت خسائر هوازن وثقيف في هذه المعركة سبعين قتيلا، وقيل كان قريبا من مائة قتيل، وكان شهداء المسلمين أربعة شهداء.

ومهما يكن من أمر فقد عمل الرسول ρ على استثمار الانكسار الذي أصاب هوازن وثقيف في المعركة فأمر بملاحقتهم إلى مدينتهم «الطائف»، وضرب عليها الحصار على أمل حملهم على الاستسلام والرضوخ، غير أن الأمل يم يتحقق، وذلك لأن أسوار مدينة الطائف كانت حصينة، وأنهم كانوا قد رمموها استعدادا لمثل هذا الموقف، كما أنهم كانوا يمتلكون وسائل دفاعية جيدة عن حصونهم.

وعلى الرغم من أن مدة الحصار قد امتدت بضعا وعشرين يوما، أو ثماني عشرة ليلة كما يذكر ابن سعد، إلا أن أهل الطائف لم يبد عليهم الضعف أو الميل للاستسلام.

عند ذلك وجد الرسول ρ أن الاستمرار في الحصار لا يجدي كثيرا، وقد يكلفه من الخسائر ما يذهب بروعة انتصاراته السابقة، لذا فقد توجه لاستشارة نوفل بن معاوية الديلي قبل أن يتخذ قراره في هذا الصدد، فقال: فقال: يا نوفل: ما تقول؟ أو ترى ؟ فقال نوفل: يا رسول الله، ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك شيئا.

في ضوء ما تقدم، فقد فضل الرسول ρ فك الحصار عن الطائف على أن يقوم بعد ذلك باستخدام وسائل أخرى لحمل أهل الطائف على تغيير موقفهم.

وبعد انتهاء حصار الطائف توقف الرسول ρ في منطقة الجعرانة، حيث كان قد ترك الغنائم والسبي الذي حصل عليه في معركة حنين، للقيام بتقسيمه بين أفراد جيشه، وكان مقدام الغنائم وعدد أفراد السبي كبيرا.

وقد تريث الرسول ρ في تقسيم السبي، وأمر بشراء ملابس لهم من مكة لكسوتهم رأفة بهم، على أمل أن يقدم عليه وفد من قومهم لفديتهم، أما الأموال فقد بدأ بقسمتها على وفق الأنصبة الشرعية في تقسيم الغنائم، إلا أنه قام في البداية بإعطاء المؤلفة قلوبهم أعطيات من الغنائم تتناسب ومكانة كل واحد منهم في قومه، والخدمات التي قدمها للمسلمين أو التي يتوقع منه أن يقدمها، يقول ابن إسحاق إن المؤلفة قلوبهم كانوا أشرافا من أشراف الناس، يتألفهم ويتألف بهم قومهم.

وقد استطاع الرسول ρ بوساطة مالك بن عوف بعد أن تألف قلبه واكتسبه إلى صفه أن يواصل الضغط على قبيلة ثقيف في الطائف بحيث لم تعد آمنة على نفسها ومالها، مما حملها على أن ترسل وفدا إلى الرسول ρ في السنة التالية في شهر رمضان من السنة التاسعة للهجرة لمبايعة الرسول ρ والدخول في الإسلام.

يتضح من هذا أن فتح مكة وانتصار الرسول ρ بعد ذلك في معركة حنين على قبيلة هوازن وثقيف قد أديا في النهاية إلى دخول الطائف في إطار الدولة العربية الإسلامية، وبذلك شكلن مدن الحجاز الثلاث النواة التي ستتوجد حولها جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية في المستقبل القريب.

غزوة تبوك:

قرر الرسول ρ تنظيم حملة عسكرية والخروج بها إلى تخوم بلاد الشام لكسر حاجز الخوف الذي كان في نفوس الناس من الإمبراطورية البيزنطية، وإشعار البيزنطيين والقبائل العربية الموالية لهم أن المسلمين قادرون على محاربتهم وتحديهم في مناطق نفوذهم، وقد كان ذلك ضروريا بعد إخفاق المسلمين في معركة مؤتة.

ومن أجل تحقيق هذا، فقد أعلن الرسول ρ دون مواربة أن هدف هذه الحملة هو محاربة الروم، كما عمل على أن يحشد لها أكبر عدد من المقاتلين، فأرسل مبعوثيه إلى مكة وإلى القبائل الموالية للدولة الإسلامية للمشاركة فيها.

ويلاحظ أن الفصل الذي تم فيه تجهيز هذه الحملة كان الصيف، ومن ثم فقد انضم عامل الحر الشديد إلى عامل بعد المسافة وقوة العدو في تثبيط كثير من الناس في هذه الحملة، وكان أبرز من حاول التملص من المشاركة فيها الأعراب والمنافقون، إذ أخذ المنافقون يخوفون الناس ويثبطونهم ويقولون: يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به! يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعب؟

وعلى الرغم من كل ذلك، نجح الرسول ρ بفضل إيمانه وحماسة أتباعه للقضية التي يجاهدون من أجلها أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل، ومعهم عشرة آلاف فرس للمواجهة المنتظرة مع الروم البيزنطيين.

لقد سار الرسول ρ على رأس أضخم جيش استطاع حشده حتى ذلك الوقت باتجاه الشمال في ظروف مناخية قاسية، حتى نزل في تبوك، وهي منطقة في شمال شبه الجزيرة العربية، وتقع ضمن دائرة نفوذ الإمبراطورية البيزنطية، وقد مكث في هذه المنطقة عشرين ليلة، وهرقل يومئذ في حمص، لم يتحرك لمهاجمة المسلمين.

ويبدو أن وجود الرسول ρ على رأس جيشه في تبوك قد أثر في نفوس المستوطنات والقرى الموجودة هناك، فقرروا تقديم الولاء للدولة الإسلامية بعد أن كانوا متخوفين من الإمبراطورية البيزنطية.

ويلاحظ أن سياسة الرسول ρ تجاه المسيحيين واليهود كانت قائمة على الاعتراف لهم بحق الاحتفاظ بعقيدتهم لأنهم أهل كتاب، وكان يشترط عليهم للتعبير عن ولائهم للدولة الإسلامية أن يدفع الرجال القادرون منهم مبلغا سنويا من المال يدعى الجزية، مقابل حماية الدولة لهم وبخاصة وأنهم لم يكن مفروضا عليهم واجب الجهاد وأداء الزكاة.

وقد كانت حملة تبوك هي أكبر وآخر حملة عسكرية يقودها الرسول ρ قبل وفاته، وقد تفرغ بعد عودته إلى المدينة لاستقبال الوفود وإرسال البعوث وتوجيه الناس بما يساعد على نشر الإسلام في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية وتوحيد الناس في إطار دولته، بل إن جهود الرسول ρ لم تقف عند حدود شبه الجزيرة العربية فقط، إذ إن هنالك من الآثار ما يشير إلى أنه كان يرسل الرسائل إلى ملوك وحكام البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام.

دعوة الملوك للإسلام:

تتفق المصادر التاريخية على أن الرسول ρ قد بدأ بعد صلح الحديبية في توجيه الرسائل إلى شيوخ القبائل العربية وحكام البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام، ويبدو أن ذلك كان منسجما مع وضع الرسول ρ السياسي بعد أن أفلح في تحييد قريش وتفرغ لنشر الدعوة بين الناس في جزيرة العرب، كما أنه ينسجم مع رسالة الإسلام العامة التي جاءت كما يؤكد القرآن الكريم إلى الناس كافة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}، لذا فإنه ليس من المستبعد أن يقوم الرسول ρ بالكتابة إلى قيصر الروم وكسرى فارس وحكام الحبشة ومصر والشام وغيرهم لتعريفهم برسالة الإسلام ودعوتهم للإيمان بها. فقد خرج النبي ρ على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية، فقال: أيها الناس، إن الله قد بعثني رحمة وكافة،... فبعث رسول الله ρ رسلا من أصحابه، وكتب معهم كتبا إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام. فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر، ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، ملك فارس، وبعث عمرو ابن أمية الضمري إلى النجاشي، ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياد ابني الجلندى الأزديين، ملكي عمان، وبعث سليط بن عمرو، أحد بني عامر ابن لؤي، إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي الحنفيين، ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي، ملك البحرين، وبعث شجاع ابن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك تخوم الشام.

نخلص من هذا إلى أنه إذا كان من الصحيح القول إن الرسول ρ قد وجه رسائل إلى كسرى وقيصر وأتباعهما، فمن الراجح أنه وجهها في حدود السنة التاسعة للهجرة حينما أصبحت دولته على درجة من القوة والنفوذ بحيث بات من الضروري إشعار الدول المجاورة بمكانتها وأهميتها على الساحة الدولية، وربما كان من المحتمل أن هذه الرسائل كانت تستهدف في المرحلة الأولى من الاتصال فتح حوار سياسي مع حكام هذه الدول للحصول على اعترافهم بالدولة الجديدة، وإقامة علاقات معها تتسم بقدر من المساواة والتكافؤ في المعاملة تماما كما حصل بين الرسول ρ وقريش عند توقيع صلح الحديبية.

عام الوفود سنة ٩ للهجرة:

بعد عودة الرسول ρ من تبوك تزايد قدوم وفود القبائل العربية إلى المدينة لمبايعة الرسول ρ والدخول في الإسلام، حتى أطلق المؤرخون على تلك السنة سنة الوفود، لأن وفود العرب جاءت إلى الرسول ρ من كل وجه، وكانت الوفود التي أشير إلى قدومها في هذا العام هي وفود: أسد، وفزارة، وثعلبة، وتميم، وكلاب، وقشير، والبكاء، وكنانة، وثقيف، وبهراء، كما أشير إلى قدوم وفود أخرى بعد عام الفتح دون تحديد تاريخ وفادتهم، وربما كان ذلك أيضا في عام الوفود، وهذه الوفود هي: محارب، وعبس، وهلال، وعامر بن صعصعة، وجعدة، وباهلة، وطيء، وجذام، وحنيفة، وبكر بن وائل، وتغلب.

إن سبب هذا الإقبال الشديد على مبايعة الرسول ρ والدخول في الإسلام أن العرب كانوا ينتظرون نتيجة صراع الرسول ρ مع قريش، لأن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم وسدنة الكعبة، وقادة العرب لا ينكرون ذلك.

ويلاحظ أن هذه الوفود قد قدمت إلى المدينة بصورة طوعية، وكان أفراد الوفود يتكلمون في معظم الأحيان باسم قبائلهم، وبذلك كانت البيعة تلزمهم وتلزم من وراءهم من أفراد القبيلة.

ولم تكن ثمة صيغة محددة لعدد أفراد الوفود أو القضايا التي يتفاوضون فيها مع الرسول ρ إلا أن معظم الوفود كانت تعلم إسلامها وتقوم بمبايعة الرسول ρ، وكان هو من جانبه يقبل ذلك منهم، ويستضيفهم طوال إقامتهم في المدينة، ثم يقدم لهم بعض الهدايا والجوائز عند مغادرتهم لها.

ولم يكن الهدف من قدوم جميع الوفود الدخول في الإسلام، فقد سعت بعض الوفود إلى عقد معاهدات لغرض الحصول على الحماية، كما فعل وفد نصارى نجران مقابل أداء مبلغ من المال إلى المسلمين، كما إن بعض رجال الوفود سعوا إلى الحصول على امتيازات سياسية مقابل الموافقة على الدخول في الإسلام، كما فعل عامر بن الطفيل، إلا أن الرسول ρ رفض ذلك لحرصه على وحدة السلطة ومركزيتها من جهة، وعلى المساواة بين المسلمين من جهة أخرى.

لقد ساعد قدوم الوفود من مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية إلى المدينة ومبايعتها الرسول ρ على الإسلام على توفير المناخ الملائم لانتشار الإسلام بين جميع أبناء الأمة العربية وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية على الأرض العربية، غير أن تحقيق ذلك الهدف لم يكن بالأمر الهين، لأن هناك مسافة كبيرة بين مجرد إعلان الوفود قبولهم للإسلام، وبين إيمان أفراد عشائرهم به، وفهمهم له، والتزامهم بقيمه.

وقد كان الرسول ρ يدرك هذه الحقيقة بصورة عميقة، لذا فإنه لم يفرض على القبائل التي أسلمت متطلبات ثقيلة أو قيود شديدة، فبقيت العشائر محتفظة بكيانها وديارها ورؤسائها ونظمها، وكذلك المدن والقرى ما دامت لا تتعارض مع مبادئ الإسلام الأساسية.

إن الانتشار الواسع الذي تحقق للإسلام في شبه جزيرة العرب في حدود السنة التاسعة للهجرة قد جعل أمر إعلان الإسلام عقيدة ونظاما لكل العرب أمرا ممكن التنفيذ، وهو يساعد على استكمال وحدة الأمة والدولة، وقد نزلت سورة براءة على الرسول ρ لترسم طريق تحقيق هذا الهدف.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الرابع

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الرابع

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الرابع

الطبقات الكبرى: ابن سعد

السير والمغازي: ابن إسحاق

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح